قسم التاريخ/ السنة الأولى/ مقرر العصور الكلاسيكية/ محاضرة رقم(٢)

د. محسن يوسف محمد

الإسكندر الكبير

(حياته، معاركه، وفاته)

أولاً: نشأته وتربيته:

- ولد الإسكندر في صيف العام ٣٥٦ ق.م، وكان ثمرة زواج فليب الثاني زواجاً سياسياً من أولمبياس، أخت إسكندر ملك أبيروس.

- تلقى الإسكندر تربية خاصة لم يحصل عليها أي ملك من ملوك مقدونية الأوائل وخاصة من الناحية التعلمية، إذ استدعى والده فيليب الثاني، ملك مقدونية الفيلسوف الكبير **أرسطو** (٣٨٤ – ٣٢٢ ق.م) لإكمال تحصيل ابنه الإسكندر.

وكان على أرسطو أن يجابه صبياً وهو في الثالثة عشرة من عمره، شديد الذكاء، ناضجاً قبل أوانه، فخوراً بمحتده، طموحاً في تصوراته، شغوفاً بالمجد حتى الهوس، صعباً في مراسه، لا يتحمل الإكراه على أمر، ومولعاً بممارسة كل رياضة عنيفة. وكان ذلك في بلاّ (Pella) عاصمة مقدونية عام ٣٤٢ ق.م، وهو العام الذي تبلورت فيه فكرة فيليب الثاني لأن يكون ابنه ولياً للعهد، لما توفر فيه من أسباب القوة والشجاعة والرجولة والثقة الكاملة في النفس، عندما استطاع الابن أن يكبح جماح الجواد بوكفالوس ويمتطي صهوته مزهواً، بعد أن فشل كل الفرسان المقدونيون الذين يجيدون ركوب الجياد حتى الملك فيليب نفسه من كسر جماحه. وقد كان مقدراً لهذا الجواد الذي رافق الإسكندر في كل معاركه، أن يكون من أشهر الجياد في التاريخ،

وبذلك نطق لسان فيليب في ولده قائلاً (**يا ولدي، إن أرض مقدونية لن تكون كفاء لك، إن في شأنك مملكة من صنعك تكون جديرة بك**).

ومن هنا تكمن القاعدة الأساسية التي استلهم منها فيليب قراره من أن يجعل من ابنه ولياً للعهد، الذي هيأ له المناخ المناسب باستدعائه الفيلسوف الكبير أرسطو لأن يكون معلماً لابنه الإسكندر.

ويعود اختيار فيليب لأرسطو لعدة أسباب من أهمها:

١- إعجاب فيليب بالثقافة والعقلية اليونانيتين حيث أمر باتخاذ اللغة اليونانية لغة مستخدمة في بلاطه، وكان يولي التعليم قدراً كبيراً من الاهتمام دائماً، وكلّفه ذلك دفع مبالغ طائلة من المال إلى أرسطو لقاء تعليم ابنه حيث حققت هذه التجربة نجاحاً عظيماً، وذلك لأن شهرة أرسطو كانت تقوم على علومه الغزيرة في مجالات الطب والسياسة والقانون والتاريخ الطبيعي والتربية والتعليم. وقد عرّف الأستاذ تلميذه الفتى بكل هذه الموضوعات و بموضوعات أخرى غيرها، ولقّنه ضروب اللذة التي تتأتى باستخدام قوى العقل في التفكير وفتح أمامه على الأخص عالم الكتب العظيمة. وبعد سنوات قليلة قال الإسكندر عندما سُئل عن سبب تعظيمه لمؤدبه أرسطو أشد من تعظيمه لوالده قائلاً (لأن أبي سبب حياتي الفانية، أما أرسطو فهو مؤدبي وسبب حياتي الباقية).

٢- أراد فيليب أن يجعل تحصيل ولي العهد كاملاً على يد أستاذ أكثر انفتاحاً وأوسع شمولاً في معارفه، خبير في الأخلاقيات والأحكام، على أنه لا يستبعد أبداً أن فيليب كان يهدف علاوة على ذلك، أن يبعد ابنه عن طباع والدته الشاذة وتحكمها في تنشئة الإسكندر على ممارستها الدينية القائمة على غرائب الطقوس المهووسة.

واستغرق التعليم الجدي ثلاث سنوات متوالية (٣٤٣ – ٣٤٠ ق.م) تبعتها فترات متقطعة بقي أرسطو خلالها مع تردده إلى (ستاجيرا) مسقط رأسه إلى جانب تلميذه.

وكانت مهمة أرسطو شاقة وعسيرة، إلا أن الحظ حالفه في تيسير أمور مهمته بأن اهتدى إلى منفذ بلغ به قلب تلميذه، لما رأى عنده من انفتاح حتى النهم لكل علم ومعرفة، وقد وصفه المؤرخ اليوناني بلوتارخوس عندما قال:(بأنه كان شديد الشغف بالعلم، شغفاً يزداد على مر الأيام، وكان مولعاً بجميع أنواع المعارف محباً لقراءة جميع أنواع الكتب).

وسرعان ما نفذ الأستاذ إلى قلب الأمير الشاب لسعة علمه ودقة ملاحظاته وطرافة تعليمه، وأخذ يلقنه منذ السنوات الأولى أصول الأدب اليوناني ومبادئ الخطابة والشعر، ونقّح له نص الإلياذة الهومرية وعلّق له عليها، فأضحى ذلك النشيد الخالد للإسكندر الصغير.

ولعل كتاب أرسطو في الشعراء ومؤلفات أخرى في الأدب وفلسفته قد وُضعت في تلك الحقبة لولي عرش مقدونية وغيره من أبناء أشراف الأمراء والوزراء وأبناء كبار البلاط الذين كانوا يشاطرون الإسكندر الصغير دروسه، وكان من بين هؤلاء استناداً إلى قول المبشّر بن فاتك (كثير من التلاميذ من أبناء الملوك وغيرهم منهم: ثاوفرسطس، وأوديموس، والكسندروس الملك (أي الإسكندر)، وأرميوس، وأيسخولوس وغيرهم من الأفاضل المشهورين المبرزين في العلم). ونذكر منهم أيضاً هيفايستون صديق الإسكندر المفضل، ونيكاتور وهو ابن بارمينيون كبير قواد الدولة، ولونات الذي خاطر بنفسه في حصن الماليان لإنقاذ حياة الإسكندر ولعب دوراً كبيراً في حروب السند.

ولم يكتف أرسطو في تهذيب تلميذه الملكي بالدروس البيانية والأدبية، بل شمل الشعر والأدب والخطابة والسياسة والتاريخ والجغرافية ومعلومات عن الطب والتطبيب، ويقول بلوتارخوس في حياة الإسكندر: (إني اعتقد أن حب الإسكندر الطب مرّده إلى أرسطو أكثر من غيره، ولم تكن معرفة الإسكندر الطب مقتصره على المبادئ، بل كان يداوي أصدقاءه في مرضهم ويرشدهم إلى طرائق المعالجة والحمية كما هو واضح من رسائله). ولكن في هذه النقطة بالذات يجب الإشارة إلى ملاحظة مهمة وهي، أن طب عصر أرسطو طب تلقيني عملي قبل كل شيء، يقول على الملاحظة والتمرس، تجوده الحذاقة ويغنيه الحدس، لا تسبقه دروس تشريحية أو فيزيولوجية كما نألفها اليوم.

إلا أن أهم ما كان يصرف أرسطو عنايته إليه في تربية الإسكندر، هي الدروس العالية التي كان يلقيها عليها في المنطق والفلسفة الطبيعة وما بعد الطبيعة والأخلاق وخصوصاً في السياسة، لأن هذه المادة كانت في نظر فيليب والد الإسكندر أهم المواد، لما كان يباشره من حروب وما كان أخذاً فيه من خطة السيطرة والتوسع وبسط سلطانه على بلاد اليونان وما كان في نيته من إخضاع بلاد فارس واستعمار الممالك الآسيوية. فلذلك ركز أرسطو على تعليم تلميذه من هذه الناحية (الأخلاق السياسية) التي شدد فيها على المعايير السياسية في كيفية التعامل مع رعيته أتباعه كون الإسكندر الصغير ملك المستقبل، واستطاع أرسطو أن يغرز في عقل تلميذه الصغير هذه المبادئ السياسية بحكم وأمثال كانت شاهداً على إنسانية الإسكندر وحضارته وأسلوب تطبيقها خلال فترة الفتح، ويورد المبشر بن فاتك بعض هذه الحكم والأمثال في رسائل كتبها أرسطو لتلميذه الإسكندر يقول فيها:

(اعلم أن العلم زين الملوك، ودليل ذلك أن يسلم الناس من جورك ويحمدونك وتسلم آخرتك). ثم يضيف (املك الرعية بالإحسان إليها، تظفر بالمحبة منها، فإن طلبك بإحسانك إليها أطول بها باعتسافك عليها) وقال للإسكندر مرة (إن الجمال مضرة على صاحبه ومنفعة للناظر إليه) ثم كتب له (إن الذي يتعجب فيه الناس منك الجزالة وكبر الهمة، والذي يحبونك عليه التواضع ولين الجانب، فاجمع الأمرين، تجتمع لك محبة الناس وتعجّبهم منك) ويضيف في مكان آخر (إنك قد أصبحت ملكاً على ذوي الإحسان، وأوتيت فضل الرئاسة عليهم، فما يشرّف رئاستك ويزيدها نهلاً، أن تستصلح العامة لتكون رئيساً لخيار محمودين لا لأشرار مذمومين).

ولقد ألف أرسطو لتلميذه كتاباً في (الملكية) وآخر في (الاستعمار)، ولسوء الحظ لم يبق منهما إلا شذرات.

ولعل الفيلسوف أسهم عملياً في بعض الشؤون السياسية نزولاً عند رغبة الملك فيليب. ولكن أصعب الأمور التي واجهها أرسطو في مسيرته التعليمية لتلميذه، هي تشذيب طباعه الصعبة التي ورثها عن والدته أولمبياس ما أمكنه، فسعى قبل كل شيء إلى تمرينه على كبح نزواته العارمة، وعلى إخضاع أعماله للعقل وجعل الاعتدال رائده في كل شيء. وبوسعنا أن نؤكد أن تأثير المعلم في تلميذه كان عميقاً في حقلي الأخلاق والثقافة، وهذا ما يظهر من خلال الرسائل التي كتبها الإسكندر لأستاذه أرسطو والتي يقول فيها: (خير لي أن أتفوق على غيري في العلوم من أن أتفوق عليهم في اتساع الملك وقوة السلطان). وقال ذات مرة (لولا العلم ما قامت الدنيا، ولا استقامت المملكة، وكل شيء تحت العقل واللسان لأنهما الحاكمان على كل شيء، والمخبران عن كل شيء، والقلم يوجدهما شكلين و يريكهما صورتين).

وقال في فصل من كتاب له إلى أرسطو (أما بعد فإني راغب في المشورة، طالب للزيادة في المعرفة، أعرف مجدها، وأجتهد في الاختصاص بمنافعها، ليس تثنيني عن ذلك رغبة أظن إني أنالها، ولا قضية أتوهم بلوغها).

وأما إعجاب الإسكندر بالحضارة اليونانية وتمسكه بثقافتها وعلومها، وسعيه لنشرها في كل البلاد التي افتتحها بقيت من ثوابت أهدافه. وإن حبه للعلم الذي نهله من معينه الصافي، جعله يحيط نفسه بالفلاسفة والعلماء والمؤرخين والشعراء والخبراء في شتى المعارف البشرية. وهكذا نرى، أن سياسة الفتح التي قام بها الإسكندر، قد اتخذت في كثير من مظاهرها صفات البعثة العلمية، ويعود الفضل إلى أرسطو، أخذ بشؤون الإدارة وأمور الحرب ثم الفتح، ولم يتفرغ للدراسة بعد ذلك على يد أحد غير أرسطو.

ثانياً: هل نجح أرسطو في تربية الإسكندر:

لكي نسهّل دراسة مثل هذا الموضوع، يجب أن ننظر إليه من ناحيتين اثنتين:

أولاهما: الناحية التعليمية وثانيتهما السياسية:

١- من الناحية التعليمية:

نجح أن أرسطو إلى حد كبير في التأثير على فكر تلميذه في مختلف المجالات العلمية والتربوية، فهو أراد أن يشذّب طباع الإسكندر الصعبة التي ورثها عن والدته ما أمكنه، فسعى قبل كل شيء إلى تمرينه على كبح نزواته العارمة وعلى إخضاع أعماله للعقل والتعقل وجعل الاعتدال رائده في كل شيء، وكان تأثير المعلم في تلميذه عميقاً في حقلي الأخلاق والثقافة، والأدلة على ذلك كثيرة، وكلها تشير إلى عرفان كبير وتقدير عميق أعنهما الإسكندر مراراً ورافقاه طوال حياته.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية لا مناص من القول إن هذا التأثير فيما يتعلق بضبط النفس والاعتدال، خف ثم تقلص مع مرور الزمن لأسباب عديدة منها الإرهاق نتيجة الجهود الجبارة والمتواصلة خلال السنوات العشر التي بذلها الإسكندر في الإدارة والحروب. فمؤرخو الإسكندر كلهم متفقون على أن الإسكندر كان يجمع بين يديه الإدارة والقيادة، وقد أشادوا بمقدرته الخارقة على العمل دون كلل أو ملل، ولولا شبابه النضر، وصحته المتينة، وحيويته المتدفقة، وحماسه المنقطع النظير، وتطلعه إلى مثل عليا كانت عنده أقوى من العقيدة، لما استطاع الصمود طوال تلك السينين المضنية، إذ دأب على الدوام أن يحتفظ لنفسه بأصعب المهام وأخطر المراكز، زد على ذلك تململ الجيش وعقد المؤامرات، التي تعرّض لها والندم العميق الذي استحوذ عليه بعد ارتكابه أعمال عنيفة مقيتة.

كل ذلك أدمى قلبه، ووتر أعصابه، وجعله يسرف في شرب الخمر، ولا سيما في السنوات الخمس الأخيرة من حياته. وعلى الرغم من ذلك يؤكد لنا بلوتارخوس مؤرخ الإسكندر (أنه لم يكن بمقدور الخمر أو النوم أو اللهو إعاقته عما كان متوجباً عليه من أعباء الدولة، كما قد حصل للكثيرين الذين ارتكبوا مركبه).

وأما حب الإسكندر للعلم الذي نهله من معينه الصافي، جعله يحيط نفسه بجمهرة من العلماء في شتى المعارف البشرية، والفضل يعود في ذلك إلى أرسطو للبحث عن منافذ بحر قزوين، وحقق استكشاف الساحل الممتد من دلتا الهندوس إلى مصبات دجلة والفرات. وقبيل وفاته، أراد إكمال ما بدأ به، حول سواحل شبه جزيرة العرب، لربط العراق بمصر، وكان موته عشية اليوم الذي كان على الأسطول البدء برحلته.

وبقي الإسكندر رغم مشاكله، يتفرغ للمطالعة كلما سنحت له الفرصة وكانت نسخة الإلياذة التي ضبطها وعلّق عليها أرسطو لا تفارقه، وتزّود بكل ما استطاع من مسرحيات أيسخيلوس وسوفوكليس ويوروبيدس وغيرها من الكتب. واستطاع الإسكندر أن يخدم العلم في شخص أستاذه المفضل فخصص له ٨٠٠ وزنة اقتطعت من غنائم الشرق على ما يخبرنا به المؤرخ بليني، لمساعدته في افتتاح أول مدرسة علمية (اللقيون) وفي الاستمرار في أبحاثه العلمية، ويجرّد له رجالاً لجمع النماذج الحيوانية والنباتية والمعدنية في البلاد التي أفتتحها.

٢- من الناحية السياسية:

لا يُمكن الحُكم على هذه الناحية إلا بعد أن نتعرّض بعض الشيء إلى أجواء الفكر السياسي الذي كان سائداً في بلاد اليونان في تلك الفترة.

من الأمور المسلم بها التي لا يمكن أن يرقى إليها الشك وأن توضع موضع جد، اعتقاد اليونانيين بامتياز عنصرهم عن البرابرة (أي غير اليونانيين) من فرس وغيرهم. فالمسرحي اليوناني يوروبيدس (٤٨٥ – ٤٠٦ ق.م) يقول (إن البرابرة كلهم عبيد، ما عدا واحداً منهم، أي من يرأسه). وأما أفلاطون (٤٢٩ – ٣٤٧ ق.م)، فيشيد قرابة اليونان والبربري عدوان بالطبيعة. واستمر إيسوقراط (٤٣٦ – ٣٣٨ ق.م)، على مدى قرابة نصف قرن يُردد بلا ملل أو كلل دعوته إلى تحقيق الاتفاق والوحدة بين اليونانيين، وشن الحرب على البرابرة، أي الفرس والثأر منهم والسيطرة عليهم بحق سمو الحضارة اليونانية على ما عداها، وذلك عن طريق إلقاء الخطب الطويلة لليونانيين، وللزعماء أمثال فيليب، ومن أشهر هذه الخطب خطبته العظيمة المعروفة باسم الجمعية العامة أو البانيجركس.

وديموسثنيس (٣٨٣-٣٢٢ ق.م)، كان يضفي على هذه الحرب صفة قدسية. أما أرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق.م/)، اعتبر دولة المدينة اليونانية (Polis) كل شيء، والشرقي غير جدير إلا بأن يحكمه اليوناني ويعامله معاملة العبيد، ويتفق رأيه مع يوروبيدس من (أن اليونان سادة الأعاجم)، كأنما الأعجمي والعبد بالطبيعة واحد. ويقسم أرسطو الناس إلى قسمين (بعضهم أحرار بالطبع، والبعض الآخر أرقاء بالطبع).

أما في شأن تطبيق هذه المبادئ على الفتح المقدوني، فقد كان إيسوقراط ينصح الملك فيليب (أن يكون مُحسناً إلى اليونان، ملكاً على المقدونيين، وسيداً على البرابرة). وما علّمه أرسطو إلى تلميذه لم يخرج عن هذه الأطر، فقد قال له (عليه أن يكون قائداً لليونان، وسيداً على البرابرة). وكان كاليستين نسيب أرسطو وتلميذه والمؤرخ الرسمي لحملة الإسكندر، يمثل هذا التعليم الأرسطي، ويجسد هذه العقلية التقليدية على أكمل وجه.

إذن، هذه هي الأجواء السياسية المعمول بها في بلاد اليونان، أي الدعوة إلى استرقاق الشعوب البربرية (أي غير اليونانيين)، فما الذي فعله الإسكندر تجاه هذه الدعوات وهذه الأجواء؟.

يمكن القول، أن ما فعله الإسكندر كان مناقضاً لأفكار أستاذه أرسطو، الذي لم يكن يقر قيام دولة عالمية أوسع نطاقاً من نطاق دول المدن الصغيرة اليونانية، ولا المساواة بين الشعوب اليونانية والبرابرة في المعاملة. وإذا كان من الجائز أن أرسطو لم يوح إلى الإسكندر بمحاربة الفرس، إلا أنه كان يعتبر هذه الحرب حرباً عادلة ومقدسة على من هم دونهم في العراق والجنس والثقافة. ولكن التلميذ (الإسكندر) فنّد

وطرح تعاليم أستاذه أرسطو سريعاً، فيما يخص تفوق اليونان العرقي، واعتبار كل من سواهم برابرة. وكان كما لاحظ كبار مؤرخيه، على العكس من ذلك يُمعن في (تمشرقه) كلما ابتعد عن اليونان وتوغل في فتوحاته. بل يمكن القول، بل اطمئنان بأنه تجاوز أفكار أستاذه بعيداً بنظرته الإنسانية التي تتفق ومفهوم الشرائع السماوية، ورغم إيمان الإسكندر بتفوق حضارة اليونان، إلا أنه كان يؤمن بمبدأ الأخوة الإنسانية والمساواة بين الشعوب ومزج الأجناس وإزالة البغضاء بين القارتين المتعاديتين، وانطلاقاً من هذه العقيدة الإنسانية الحضارية، كانت له أربع زوجات كلهنّ فارسيات، وقد أقام يوماً حفل زواج جماعياً اقترن فيه ثمانون قائداً من قواده بفارسيات، وليس هذا فقط، بل كان عدد جنده من الفرس لا يقلّ عن نظرائهم اليونانيين، وعزم على إخضاع كل رعاياه من فرس ومقدونيين ويونانيين لقواعد تشريفات واحدة.. ولهذا كان الغضب عليه عارماً في صفوف أبناء جلدته الذين كانوا يترفعون على أبناء غيرهم من الأمم ولا يسحبونهم إلا بزمرة العبيد لهم.

ومن هنا يمكن القول، إن أرسطو استطاع إلى حد كبير أن ينجح في تربية الإسكندر من الناحية التعليمية وأن يغرز في فكر تلميذه العلم والمعرفة، والاعتدال، وتشذيب النفس، وضبط الانفعال، والإحسان إلى الرعية. ألا أنه فشل فشلاً ذريعاً في تربيته من الناحية السياسية للبون الشاسع بين فكره الذي يؤمن بسمو الحضارة اليونانية على غيرها من الشعوب واعتبارها كل ما هو غير يوناني (بربري)، وفكر تلميذه الإسكندر الذي كان يؤمن بفكرة إنسانية حضارية بعيدة كل البعد عن الفكر السياسي اليوناني في تلك الفترة، وهي فكرة المساواة بين الشعوب،

إزالة البغضاء بين الأجناس المتعادية، وأن التفاضل بين الشعوب يجب أن يقوم على فضلهم وأعمالهم، وليس حسب أجناسهم وألوانهم.

ثالثاً: استتباب الأمر للإسكندر:

بعد اغتيال الملك فيليب في العام ٣٣٦ ق.م ، نادى الجيش بالإسكندر ملكاً، فقام بإلقاء القبض على المتهمين باغتيال والده وإعدامه مع جميع المنافسين والمناوئين له، وبهذه الخطوة يكون قد قضى على المقاومة الداخلية.

و اتجه فوراً في صيف العام ٣٣٦ ق.م نحو الجنوب واسترد سلطانه على تسالية، واختير رئيساً لحلفها مدى الحياة مكان فيليب، كما دانت له مدن حلف كورنثة ما عدا إسبارطة واختارته قائداً للحلف مكان والده، وكلفته بغزو آسيا الصغرى والقضاء على دولة الفرس.

و قام بحملة جريئة أرغمت كل الشعوب البلقانية في أواسط بلغارية ومدينة بخارست في رومانيا الحاليتين على تقديم فروض الطاعة. ثمّ أخضع الأليريين و استعاد القلاع التي سيطروا عليها.

و في العام ٣٣٦ ق.م راجت إشاعة في أثينا، أنَّ الإسكندر قد قُتل وهو يحارب عند نهر الدانوب، فثار أهل أثينة و معها طيبة، وقتلت الموظفين المقدونيين الذين تركهم فيها الإسكندر، واستولت على أحد حصونه، وأرسلت أثنيا العون إلى طيبة الثائرة، وثارت ثائرة الإسكندر لهذا العمل، فقام بالزحف نحو الجنوب وهاجم بلاد اليونان مرة أخرى، ووصل إلى طيبة، فاقتحمها عنوة ودمرها عن بكرة أبيها، وقتل ستة آلاف من أهلها وبيْعَ الإحياء الباقون في سوق العبيد، وقد أرعبت هذه الصرامة دول اليونان الأخرى، فسارعت كل منها إلى إعلان خضوعها.

رابعاً- دوافعُ غزوِ الإسكندرِ للإمبراطوريَّةِ الفارسيَّةِ:

- الأُسس القويمة التي أقام عليها والده فيليب صرح مقدونية والاستعدادات التي جهزها قبل موته، سهّلت كثيراً من المصاعب العسكرية أمام الإسكندر وكانت عاملاً مادياً مهماً جداً.

- فوزه برئاسة حلفي تسالية وكورنثة.

- ورث الإسكندر عن أبيه عزمه على محاربة الفرس تحقيقاً لدعوة **إيسوقراط.** وكان من أشهر فلاسفة اليونان وخطبائهم في القرن الرابع. ذلك أن هذا الفيلسوف كان قد اتجه إلى عدد من قادة بلاد اليونان وأخيراً إلى فيليب مناشداً إياه تحقيق الدعوة التي لم يمل عن ترديدها على مدى نصف قرن تقريباً، ولكنها ذهبت هباءً وسط انهماك المدن اليونانية في صراعاتها الدموية التقليدية. وفحوى هذه الدعوة، هي أن خير وسيلة لإنقاذ بلاد اليونان من صراعاتها كانت تآلف اليونان ولاسيما أثنيا وإسبارطة للثأر من البرابرة والسيطرة عليهم بحق سمو الحضارة اليونانية على ما معداها، وإنشاء مدن في الأقاليم التي تقهر.

- حث أرسطو للإسكندر على الاطلاع والبحث عن المعرفة كان دافعاً آخر من دوافع الحملة الشرقية بدليل اصطحابه معه عدداً كبيراً من العلماء والمتخصصين في مختلف فروع المعرفة.

- كان تحت أمرة الدولة الفارسية موارد لا تنضب من الأموال والرجال، ولديها أسطول ضخم يسيطر على الحوض الشرقي للبحر المتوسط، في حين أن خزائن الإسكندر كانت خاوية ومثقلة بالديون منذ عهد والده فيليب، لذلك كان الإسكندر في أشد الحاجة إلى ثروة الفرس الغنية ليظل باستطاعته الاحتفاظ بالجيش الذي بناه وخلّفه له والده ولدفع ديونه المذكورة أعلاه.

- افتقار الفرس إلى القادة المجربين وإلى ما أحرزه اليونان والمقدونيون من تقدم في فنون القتال خلال النصف الأول من القرن الرابع ق.م.

خامساً: معارك الإسكندر الكبرى:

للإسكندر أربع معارك كبرى: الأولى معركة كرانيكوس عام ٣٣٤ ق.م، قرب الدردنيل، وقد مهدت للإسكندر الاستيلاء على آسيا الصغرى. والثانية معركة إيسوس ٣٣٣ ق.م، قرب الإسكندرونة اليوم عند ممرات طوروس البحرية التي مهدت له السيطرة على سواحل سورية وفينيقية وفلسطين ومكنته من فتح مصر. والثالثة معركة جاوجميلا ٣٣١ ق.م (موقع تل جومل على بعد حوالي ٥٠ كم شمالي أربيل) قرب الموصل، ومهدت له الاستيلاء على الإمبراطورية الفارسية. وأخيراً معركة الهيداسيبس ٣٢٦ ق.م، ثاني سواعد نهر السند من الغرب التي مهدت له طريق الهند. وسنقوم الآن بدراسة تفاصيل كل معركة على حدة، ونبين نتائجها على الفتح الإسكندري.

١- معركة كرانيكوس أيار ٣٣٤ ق.م:

في ربيع العام ٣٣٤ ق.م عبر الإسكندر الدردنيل، ومعه من الجند ما يربو على ثلاثين ألفاً من المشاة وما يزيد على خمسة آلاف من الفرسان، بعد أن ترك وراءه قائدة العجوز أنتيباتروس على رأس حوالي (٩٠٠٠ من المشاة) و(٦٠٠ من الفرسان) لتصريف أمور الحكم في مقدونية ومراقبة بلاد اليونان. وبعد أن عبر الهلسبونت زار في طريقه قبر أخيل في طروادة، وصب عليه الزيت تكريماً له، ووضع عليه تاجاً من الورد، وأقسم من تلك الساعة أن يواصل ذلك الكفاح الطويل بين أوروبا وآسيا الذي بدأ عند طروادة حتى نهايته المظفرة.

ويبدو أن الملك الفارسي داريوس الملقب (بدارا الثالث)، لم يقدّر مدى الخطر الذي وفد عليه من وراء البحر، فكلف عدداً من ولاته في آسيا الصغرى بصد الهجوم المقدوني. وبالفعل قام ولاة كل من فروجية على الدردنيل، ولودية وأيونية وكبادوكية وفروجية الوسطى بإعداد قوة كبيرة بقيادة (ممنون الرودوسي) واليوناني الأصل – وكان قائداً لقوات المرتزقة اليونانية وبارعاً في الاستراتيجية العسكرية – لملاقاة الإسكندر، واتخذوا لهم موقعاً منيعاً على الضفة الشرقية الشديدة الانحدار لنهر كرانيكوس. أما بالنسبة للإسكندر فقد كانت هذه المعركة من الوجهة العسكرية معركة شبه مرتجلة، واعتبرها بداية الطريق لما كان يجيش في نفسه لمجابهة الفرس في معركة حاسمة والانتصار عليهم، ولما وصل بجيشه في ساعات الظهر إلى الضفة الغربية من النهر، ركز صفوفه على مرتفع شمالي الجيش الفارسي وقليلاً إلى الوراء. ولاحظ الإسكندر بوميض عبقريته، أن العدو قد ارتكب خطأ فادحاً إذ جعل الخيالة في الصفوف الأمامية قرب ضفة النهر، مما يفقدها زخم الصدام في الهجوم، فوطّد النفس على استغلال هذا الخطأ في التعبئة وعلى بدء المعركة دون إبطاء، وخاصة أن الشمس أخذت تميل إلى ما وراء ظهره، مما يعيق رؤية العدو إبان المعركة.

ورغم كل المحاذير التي عدّدها (بارمينيون) أحد أكبر قادته العسكريين، لافتاً نظر الإسكندر إلى عمق مجرى النهر، و ارتفاع الجرف المتربص عليه العدو، والخوف من تشرذم الكتائب المقدونية عند اجتيازها النهر تحت وابل السهام، أعطى الإسكندر أمره ببدء القتال، موعزاً إلى فرسانه بتسديد الضربات على ميمنة العدو، في حين قاد بنفسه ما تبقى من جنده وقام بعبور النهر فجأة عند التقاء ميسرة العدو، مع قلبه وتحطيم مقاومة الفرس الذين قاوموه مقاومة يائسة، وقتل في هذه المعركة أعداد كبيرة

من المرتزقة، ولم ينج منهم إلا القليل ممن تمكنوا من الانسحاب مع الجنرال ممنون، وقد أسر من هؤلاء المرتزقة ألفان، أبقى عليهم الإسكندر وأرسلهم إلى مقدونية للعمل في الأشغال الشاقة.

ورغم أن هذه المعركة كانت قصيرة الوقت انتهت بتقهقر الخيالة الفارسية والقضاء على معظم قوات المرتزقة، إلا أنها كانت حامية وخطيرة جداً، إذ كاد الإسكندر يقع صريعاً في الميدان، من خلال استعراضنا لنصين تاريخيين يعودان إلى كل من بلوتارخوس وآريان مؤرخي الإسكندر، يستعرضان في هذين النصفين كيف تعرّض الإسكندر للموت المحتم في حومة المعركة عندما أطبق عليه القائدان الفارسيان الكبيران سيتيزيدات وريزاس، فتحاشى الإسكندر الخصم الأول، وسدد رمحه إلى صدر الثاني فانكسر على الدرع، فاستل الإسكندر سيفه يقارع خصمه، فما كان من سيتيزيدات إلا أن اقترب من خلف الإسكندر المنشغل بخصمه، وعلاه بضربة سيف خرقت الخوذة وانتهت إلى شعره، ثم رفع ذراعه وكاد أن ينهال عليه بالضربة القاضية لو لم يعالجه كليتوس المقدوني – أحد قادة الإسكندر – بضربة سيف بترت ساعده. كانت حياة الإسكندر ومستقبل الفتح وكل منجزات العصر الهللينستي رهن ضربة كليتوس، وكانت حقاً ثواني معدودات حددت للتاريخ مجراه، ولو تأخر كليتوس لحظة واحدة لقضي على كل شيء.

وبعد الانتصار في كرانيكوس، استسلمت جميع المدن والمستوطنات اليونانية المنتشرة في آسيا الصغرى، كما قدِمت إلى الإسكندر وفود من المدن الآسيوية تطب منه القيام بزيارة مدنها وتعلن فتح أبوابها له.

وقد بعث الإسكندر بالجنرال (بارمينيون) مع كوكبة من الفرسان وخمسة آلاف من المشاة، لتسلّم هذه المدن وتنظيم أمورها. أما مدينتا ميليتوس وهاليكارناسوس، وكانت مرفأين هامين للأسطول الفارسي، فقد رفضتا الاستسلام واضطر الإسكندر إلى احتلالهما عنوة بعد حصار شاق. وفي هذه الأثناء كان الشتاء قد أقبل، فعزم الإسكندر على قضاء هذا الفصل في طرسوس (بين أضنة ومرسين) وأرسل الجنود الذين كانوا قد تزوجوا حديثاً إلى قضاء فصل الشتاء مع عائلاتهم، ومعهم ضباط كُلفوا بتجنيد متطوعين من مقدونية والبلقان للانضمام إلى الجيش.

وكان الفرس يعتمدون في حكمهم المدن اليونانية في آسيا الصغرى على الطغاة والحكومات الأوليجاركية، ولكن الإسكندر نهج في آسيا الصغرى بعد نصره السابق نهجاً مغايراً لذلك، وهو الاعتماد على تأييد الحكومات الديمقراطية الحرة.

ومرد ذلك أن الديمقراطيين كانوا يكرهون حكامهم الطغاة والأوليجاركيين وكذلك الفرس الذين أقاموا عيهم أولئك الحكام، وإلى أن أعداء الفرس كانوا أصدقاء الإسكندر بحكم المصالح المتبادلة، ولهذا فإن الفاتح المقدوني أعلن أنه قد أتى للقضاء على الحكومات الأوليجاركية وإعادة الديمقراطية، والسماح لكل مدينة باسترداد حقها في الحرية والتمتع بقوانينها الخاصة التي كانت لها قبل خضوعها لسلطان الفرس.

وكان جراء هذا الإعلان، أن الديمقراطيين قاموا بالاستيلاء على مقاليد الأمور في المدن اليونانية في آسيا الصغرى، وبطرد الحكومات الموالية للفرس، وعلى هذا النحو اكتسب الإسكندر ولاء هذه المدن وضمن خطوطه الخلفية قبل متابعة زحفه صوب سورية.

٢- معركة إيسوس (تشرين الثاني ٣٣٣ ق.م):

لم تنل الهزيمة الأولى عند نهر كرانيكوس من معنويات الفرس، وكانت آمال العاهل الفارسي تعتمد على الجنرال (ممنون الرودوسي)، والذي كان (دارا) عظيم الثقة به وموضع اعتماده وقد عينه قائداً عاماً.

في هذه الأثناء وبعد استسلام معظم مقاطعات آسيا الصغرى للإسكندر وتعيين عدد من قادته على الولايات التي أخضعها، خف شمالاً للانضمام إلى قوات قائدة (بارمينيون) عند جورديوم في مقاطعة فروجية الداخلية، وسط آسيا الصغرى للإشتاء وانتظار وصول الإمدادات من مقدونية. ويُذكر أنه يوجد في قلعة هذه المدينة كارة قديمة تُنسب إلى الملك (جوردياس)، وأغرب من في هذه الكارة، أنه كان هناك حبل ضخم من اللحاء يشد النير إلى عريشها، خُفي أوله وآخره بتشابكات يتعذر تمييزها، وكانت قد شاعت نبوءة عن عقدة الكارة، أن الآلهة وعدت من يستطيع فك العقدة بالسيطرة على آسيا كلها، ووقف الإسكندر أمام هذه العقدة الغريبة وتأملها، وبعد أكثر من محاولة، استل فجأة سيفه وقطعها بضربة واحدة.

كانت خطة الفرس الاستراتيجية في هذه المعركة، أن يتوجه الجنرال ممنون لغزو اليونان لقطع الإسكندر عن مواصلاته وقواعد تموينه عبر البلقان وبحر إيجة، وبدأ بتنفيذ الخطة في ربيع العام ٣٣٣ ق.م، وقد تكلل هجومه المبدئي المضاد بنجاح، فاسترد جزيرة خيوس، وأطاح بحكومات عدد من الجزر الأخرى، وشرع في احتلال جزيرة لسبوس مفتاح طريقه إلى اليونان. وهكذا عاد بحر إيجة من جديد بحيرة فارسية، وقد أصيب الإسكندر بالقلق الشديد جراء ذلك، وخاصة أنه لم تكن لديه قوة بحرية لصد الأسطول الفارسي بعد أن سرّح معظم أسطوله، في حين كان الجنرال

ممنون يهاجم وينتقل من نصر إلى نصر، وقد غدا وضع الإسكندر حرجاً جداً في البلقان واليونان. إلا أن الحظ أو الصدف حالفت الإسكندر هذه المرة وأنقذته من هزيمة منكرة، إذ مرض الجنرال ممنون ومات فجأة، وكان موته ضربة قاصمة للملك الفارسي ومخططاته. وقد ترك ممنون القيادة لاثنين من مساعديه، لكنهما لم يكونا على مستوى في الحنكة والمهارة والخبرات، زد على ذلك قيام (دارا) باستدعاء حوالي عشرين ألفاً من المرتزقة اليونانيين الذين كانوا يعملون كمشاة البحر في الأسطول، مما قلل من إمكانات العمل البحري لديه في البلقان وبحر إيجة.

وإزاء زوال خطر ممنون والاستعدادات التي بدأ (دارا) يتخذها، خف الإسكندر جنوباً لاحتلال البوابات الكيليكية (إحدى مداخل سورية الشمالية) ذات الموقع الاستراتيجي الهام. وبعد الاستيلاء عليها اتجه إلى مدينة طرسوس، وفيها أصابه مرض إثر استحمامه وهو في حالة تعرّق بمياه نهر الكيدنوس الشديدة البروة والهابطة من أعال جبال طوروس، فعرض عليه طبيبه فيليب الأكارناني شراباً مسهلاً، وفي تلك اللحظة وصلت إلى يد الإسكندر رسالة من قائده بارمينيون يقول فيها، أن (دارا) قد رشا فيليب ليدس له السمّ، فما كان من الإسكندر إلا أن عرض الرسالة على فيليب، وبينما كان الطبيب يقرؤها شرِب الإسكندر الدواء ولم يصب بأي سوء، وفي هذا دليل على ثقة الإسكندر الكبرى بحاشيته وقوة شخصيته ورباطة جأشه.

وبعد شفاء الإسكندر، تحرك على رأس قوات للاستيلاء على الممرات المؤدية إلى سهل (إيسوس)، وتابع سيره إلى أن بلغ مرياندروس (الإسكندرونة اليوم)، ولما بلغ الإسكندر أخيراً أن (دارا) وصل إلى إيسوس، أدرك أنه المكان الأفضل للمعركة حيث يستريح جيشه الذي لم يكن يتجاوز كثيراً الثلاثين ألفاً، بينما هذا السهل يشكل عائقاً

أمام انتشار الجيش الفارسي الكبير وخيالته، فحث القادة والجنود على المضي بأقصى سرعة فوصل عند حلول الظلام إلى الممر الذي يؤدي إلى معسكر الفرس، فاجتازه بعد أن أمّن مرتفعاته، ثم استراح جنوده على المنحدرات حتى الفجر.

ولم يكن عسيراً على الإسكندر أثناء هبوطه إلى السهل الإحاطة بتفاصيل تمركز فرق العدو، ولاحظ بعينه الوقادة، أن الفرس عمدوا إلى تكثيف خيالتهم على ميمنتهم، فأدرك أنهم يعدّون العدّة للقيام بحركة التفاف حول الميسرة المقدونية، فأكمل تعبئة صفوفه ثم أمر الخيالة التسالية أن تتسلل من الميمنة إلى الميسرة من وراء صفوف جيشه بحيث لا ترى، ليكون انقضاضها المباغت أقوى عند إحباط الخطة الفارسية إذا حدثت.

وكان الأسلوب الذي اتبعه الإسكندر في إيسوس لا يختلف في جوهره عما اختاره في كرانيكوس، إلا أن جهده لم يكن هذه المرة ينصب على خرق ميسرة الفرس والضرب في خاصرة الجيش فحسب، بل جعل هدفه الوصول إلى قلب جبهة العدو حيث كان (دارا) يتابع من على مركبته الفخمة مجرى القتال، ولما رأى العاهل الفارسي أن الإسكندر أصبح قاب قوسين منه تصحبه كتيبة (الأشراف) يدحر بنجاح كل مقاومة قاصداً إياه بالذات، فقد الملك الفارسي أعصابه ولوى هارباً بمركبته لا يلوي على شيء وأنهى بهروبه كل شيء، ولكن القتال استمر على شدته لبعض الوقت، إلا أن الفرس كانوا الآن يقاتلون إنقاذاً لأرواحهم. أما صاحب القضية فقد كان هارباً في مركبته التي تركها بسبب بطئها وامتطى بديلاً عنها جواداً سريعاً تاركاً خلفه خوذته ودرعه ومعطفه الملكي الفضفاض وزوجته وابنتيه وبقية أفراد أسرته. وكان من جملة الغنائم التي تركها (دارا) وراءه ثلاثة آلاف تالنت ذهبي وجميع خدمه وحاشيته. وعلى

الرغم من أن انتصار الإسكندر في هذه المعركة كان حاسماً، إلا أنه لم يحقق مبتغاه في القبض على خصمه أو قتله رغم عمليات المطاردة الطويلة له. ويتفق جميع الرواة على أن سلوك الإسكندر تجاه عائلة (دارا) كان شريفاً ونبيلاً، وأنه استمر يعاملها كما كانت عليه حالتها قبل انتصار الإسكندر.

آ- سورية:

وفي أول الساحل السوري أعاد الإسكندر تأسيس مرياندروس الفينيقية القديمة وأسماها الإسكندر (إسكندرونة حالياً) ثم تقدم نحو مارثوس (عمريت حالياً) فاستقبله فيها (ستراتون) نائب ملك أرادو والساحل المقابل له، وقدّم له تاجاً من ذهب نازلاً عن أرواد وماراثوس ومملكته كلها، وذلك في الوقت الذي كان فيه والده (جروستراتوس) وعدد من ملوك فينيقية وقبرص فضلاً عن قائدي البحرية الفارسية في بحر إيجة ينتظرون الأوامر للتحرك بمساعدة (أجيس) ملك إسبارطة.

وكان (دارا) قد ترك في دمشق، عندما كان في طريقه إلى معركة إيسوس، كثيراً من الأموال والأسلحة والمعادن النفيسة، وقد عمد الإسكندر من ماراثوس إلى إرسال قائده بارمينيون للاستيلاء على دمشق، وكانت المدينة الرئيسية في سورية الداخلية، وتم الاستيلاء عليها دون قتال بما فيها جميع الغنائم التي تركها (دارا) وراءه، وقد قامت بهذه المهمة مع بارمينيون، الخيالة التسالية مكافأة لها على سلوكها الرائع في معركة إيسوس. وقد وعدها الإسكندر بأن يحتفظ الفرسان لأنفسهم بكل ما قد يحصلون عليه سلباً و نهباً أثناء الطريق.

وفي ماراثوس أيضاً، تسلّم الإسكندر رسالة من (دارا) يعرض عليه فيها إطلاق سراح أسرته مقابل التحالف والصداقة، ولكن الإسكندر رفض هذا العرض وأذاع أعلاناً

سياسياً أورد فيه الأسباب المسوغة لقيامه بغزو الإمبراطورية الفارسية وركز فيه على قيام (أكسركس) بغزو بلاد اليونان قبل حوالي قرن من الزمان، وقيام (دارا) نفسه بالتدخل في شؤون بلاد اليونان، وأعلن في الختام أنه الملك الفعلي لآسيا بموجب حق الفتح والغلبة.

ب- صيدا وحصار صور:

غادر الإسكندر مارايوس صوب الجنوب، حيث بلغه نبأ استسلام جبيل وترحيب سكان صيدا به، فدخل هذه المدينة العريقة وأعاد إليها ممتلكاتها ودستورها الخاص، ثم تابع زحفه جنوباً إلى أن بلغ مدينة صور الفينيقية، وكانت صور في ذلك الزمن جزيرة صغيرة ضمن المنطقة التي تُعرف اليوم بجنوب لبنان، وكان غرض الإسكندر من الاستيلاء على صور، تعطيل طاقة البحرية الفارسية، وضمان سلامة الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. وكانت صور جزيرة منيعة وتُوصف بأنها قلعة لا تقهر، وكان سكانها قد نزحوا عن صور القديمة القائمة على بر الشاطئ ونقلوا جميع سكانها إلى ما وراء أسوار المدينة الجديدة في جزيرتهم الصغيرة المفصولة عن البر بحاجز يبلغ عرضه حوالي (٨٠٠ متر تقريباً). وكانت صور وقتئذ دولة فينيقية بحرية وتجارية، وذات ثروات غنية تكفيها لأن تعيش باطمئنان وسلام ضمن أوارها المنيعة.

قُوبل الإسكندر عند وصوله إلى صور البرية، بوفد من صور البحرية يتألف من شيوخ المدينة عارضاً عليه في غياب ملكهم المرافق للأسطول الفارسي استسلام مدينتهم، بعد أن قدموا له الهدايا وتاجاً من ذهب، ورحب الإسكندر بالوفد وتظاهر له بالود والتكريم. ولكنه طلب السماح له بدخول المدينة ليقدم القرابين لما زعمه بأنه

جده الأعلى (ملقارت). وكان ذلك من قبل الأسكندر نوعاً من المناورة والحيلة السياسية في محاولة لحمل الصوريين على الكشف عن حقيقة عواطفهم وعما إذا كانوا يرغبون حقاً في البقاء على الحياد، وقُبل طلب الإسكندر بالرفض معللين ذلك بأن زيارة الإسكندر معبد (ملقارت) كانت تعني اعتراف الإله بحق الإسكندر في حكم المدينة في عُرف ذلك العصر.

ورداً على هذا الرفض، حاصر الإسكندر المدينة وكان الهجوم عليها في منتهى الصعوبة، فالمدينة الجديدة كانت قد بنيت على جزيرة مسوّرة يبلغ محيط دائرتها أربعة آلاف متر، ويفصلها عن الشاطئ حزام بحري بعرض (٨٠٠ متر) وعمق كان يصل في بعض الأماكن غلى مائتي متر تقريباً. وكان للمدينة مرفآن الأول إلى جهة الشمال ضمن الأسوار، والثاني خارجها. وفي الجنوب الشرقي من الجزيرة كانت الأسوار ترتفع حتى علو (٥٠ متراً تقريباً) وذلك وفقاً لأقوال المقدونيين.

كانت ثقة الصوريين بأنفسهم كبيرة جداً بسبب مناعة مدينتهم وقدرتها على الصمود مدة طويلة، لكن الصوريين خاب ظنهم في ثقتهم، لأن الإسكندر لم يكن بالرجل الضعيف الذي يستكين ويصاب باليأس، إذ عنده قدرات كبيرة على الصبر والاحتمال عند الشدائد، وخاصة بعد أن جاء مهندسوه باختراعات جديدة في تكتيكات الحصار العسكرية التي بواسطتها شدد الخناق على صور وقرر أن يقوم بالهجوم النهائي بجميع معدات الأسلحة والحصار المتوافرة لديه من جهات عديدة. وبناءً على ذلك جرى تحديد مواقع الثغرات التي كانت على سفن الإسكندر أن تدرك أسوارها، وخُصصت سفن ومعدات لتغطية هذا العمل وحمايته، وجهزت مراكب المشاة لتكون جاهزة للمرور عبر الجسور المتحركة إلى الثغرات التي يتم أحداثها، وكن على

الأسطول أثناء الهجوم أن يحتل مرفأي المدينة شمالاً وجنوباً، وأن تقوم بعض سفنه حاملة المنجنيقات والنبالة بالدوران المتواصل حول الجزيرة تشتيتاً لجهود المقاومة، وتفتيشاً على نقاط الدفاع الضعيفة في الجدران واغتنامها للتسلل إلى داخل المدينة. إن مثل هذا المزيج من التكتيك المركّز والمتنوّع الذي يجري تطبيقه بانسجام ودون تشابك، هو ميزة تميز بها الإسكندر القادر على الإحساس بالسانحة واستغلالها فور حدوثها.

شرع الإسكندر في دك الجدران حسب الخطة، وأخذت القاذفات الصخرية تعمل توسيعاً وتضخيماً في الشقوق والفتحات، بينما السفن الحربية والنبالة يُصرفون المدافعين ويضللونهم، وقد أدى هذا الهجوم العنيف قبيل العصر إلى إحداث فتحات كافية في الجدران فهوت عليها الجسور المتحركة واندفع حملة التروس يعبرون هذه الجسور ويتدفقون عبر الثغرات أو يتسلقون على الجدران بواسطة السلالم والحبال. وكان الإسكندر أول من تسلق حبلاً إلى أعالي السور، وكان سلوكه ولباسه يميزه بوضوح عن الآخرين ويجعله هدفاً لسهام المدافعين ورماحهم. ومع تدفق المهاجمين عبر الثغرات وتنظيفهم للأسوار من الدفاعات الصورية، سقطت صور أخيراً بأيدي المقدونيين، وكان آخر دفاع للمدينة الباسلة عند هيكل (ملقارت) لكن دون فائدة.

كان طول أمد الحصار سبعة أشهر من (شباط إلى آب ٣٣٢ ق.م) ولذا كان انتقام الإسكندر شديداً، فقد قتل حوالي ثمانية آلاف منم سكان المدينة، وأسر ما يقرب من ثلاثين ألفاً بيعوا في أسواق النخاسة. ولكن قسوة الإسكندر هذه كان لها ما يسوّغها، إذ إنه حال اقتحام جيشه للمدينة أعلن الإسكندر عن المهادنة والأمان لكل من يلجأ إلى الهياكل وأماكن العبادة، إلا أن معظم الصوريين المقاتلين ظلوا على عنادهم بعدم

الاستسلام واستماتوا في الدفاع عن مدينتهم وثابروا على القتال حتى آخر رمق. ولم يستفد من إعلان الإسكندر سوى قلة قليلة، منها ما كان قد استطاع الهروب إلى قرطاجة، ومنها من لجأ إلى المعابد والمحافل. وفي نهاية الأمر سمح الإسكندر بإعادة إعمار المدينة وباستيطانها من قبل السكان الذين تمكنوا من النجاة، بعد أن وضع فيها حامية مقدونية، ومنحها دستوراً ونظام حكم على طريقة اليونان في تلك الفترة.

ولما كان الإسكندر قد أبقى على الملكية في صيدا، فقد آلت إليها زعامة الساحل السوري. وفي أثناء حصار صور تسلم الإسكندر إمدادات من جميع قطع الأسطول الفينيقي (فيما عدا القسم الذي كانت تسهم به صور)، كما وصلت إليه سفن قبرصية. وكان من نتيجة ذلك أن فقدت صور أسطولها وأن الأسطول الفارسي فقد أفضل سفنه، ولم يعد يشكل ذلك الخطر الكبير الذي كان الإسكندر يخشى منه.

وفي أثناء حصار الإسكندر لصور تسلم رسالة ثانية (صيف العام ٣٢٢ ق.م) من (دارا) عرض عليه فيها، فدية كبيرة قدرها عشرة آلاف ورنة كفدية لأسرته، والزواج من ابنته (ستاتيرا)، والإبقاء على القسم الغربي من آسيا الصغرى كبائنة لزواجه بها، فرفض الإسكندر وأجابه قائلاً (إن كل ما تظن أنك تعطيه لي واقع الآن بيدي، وإني لست راضياً بقسم من ملكك).

ج- حصار غزة:

جعل الإسكندر من نهاية صور عبرة لكل مدن المنطقة التي سارعت جميعها إلى الاستسلام له والاعتراف بسلطته وسيادته باستثناء غزة، التي يبدو أنها لم تتعظ بمصير صور فامتنعت عن التسليم اعتماداً على مناعة أسوارها و تأييد حلفائها من

الأعراب. وكان حاكمها باتيس الذي خُيل إليه أن الإسكندر لم يستطع الصمود أمام غزة القوية المنيعة، بعد الحصار المنهك الذي لاقاه في صور ولم يُقدِم على معركة حصارية أخرى.

وتمثلت دفاعات غزة في كونها تقع على رأس رابية عالية، ورأى الإسكندر فيها بأنها مدينة فائقة القوة وتشكّل خطراً كبيراً على شريان مواصلاته، ولذلك رأى بثاقب رأيه وسرعة قراره لمواجهة دفاعات غزة المنيعة بأن يرتفع بقاعدة الهجوم إلى ارتفاع مماثل لغزة أي إلى علو ثمانين متراً تقريباً وبدء العمل على الفور وأخذ العمال والمهندسون يخططون لكيفية تنفيذ أساليب الحصار ومن ثم الهجوم، وقد استغرق العمل والحصار شهرين كاملين (صيف ٣٢٢ ق.م)، استعملت خلالها جميع أنواع المنجنيقات وآلات الحصار، كما حفر المقدونيون أنفاقاً إلى داخل المدينة، وقد دافعت غزة عن نفسها دفاعاً مستميتاً ولكن دون الحؤول أن تسقط بيد الإسكندر، وخاصة أنها لم تتلقَ أية مساعدات خارجية، وفي نهاية الأمر استطاع الإسكندر دخول المدينة والسيطرة عليها. ونظراً للاستفزاز والمقاومة التي واجهها الإسكندر من قبل غزة وعدم الاستسلام له رغم كل الإعلانات والنداءات، بأن ألقى القبض على قائدها (باتيس) وأمر بأن تُخرق قدماه، وأن توضع فيها حلقات من النحاس وشده بعد موته إلى العربة الملكية بالحبال وجرت به في أقصى سرعة لها حول المدينة، وبعد ذلك قام بقتل جميع الرجال واستعباد النساء والأطفال.

ولابد من الإشارة هنا، إلى أن معظم المؤرخين المعاصرين يشكّون في صحة زيارة الإسكندر بيت المقدس، وهي الزيارة التي ذكرها المؤرخ اليهودي يوسف، ولم يرد لها ذكر عند غيره من المؤرخين القدامى. ولكن بعض المراجع الحديثة تشير إلى أن

بيت المقدس استسلمت للإسكندر دون مقاومة وأحسن معاملتها، وربما عدم الإشارة إليها في مصادر المؤرخين القدماء تعود إلى انعدام عمليات الحصار أو حدوث أية معارك تستدعي تأريخها نظراً لاستسلامها بشكل سلمي دون أية مناوشات.

د- مصر:

بعد تحطيم غزة تابع الإسكندر طريقه إلى مصر فوصلها في أواخر تشرين الأول من العام ٣٣٢ ق.م، فاستسلم مزاكس والي مصر الفارسي في العاصمة ممفيس، وسلّم الإسكندر جميع كنوز مصر لعلمه اليقين بعجزه عن مقاومة الإسكندر بعد هزيمة مولاه وهربه وسيطرة الإسكندر على سورية، ولاسيما أنه كان لا يستطيع الاعتماد على مساعدة الشعب المصري وكان يكره الفرس كرهاً شديداً، وهكذا آلت مصر إلى الإسكندر بدون قتال.

ولما كان المصريون يحقدون على الفرس لانتهاكهم حرمة ديانتهم، فقد كان الإسكندر حكيماً جداً من هذه الناحية، وكان أول عمل قام به عندما حط رحاله في العاصمة المصرية ممفيس (منف)، هو أن يظهر احترامه للديانة المصرية، ولذلك قدّم القرابين في معبد فتاح للآلهة الوطنية والعجل المقدس آبيس، ورسم نفسه فرعوناً طبقاً للطقوس الدينية المصرية، فلذلك رأى فيه المصريون منقذاً ومحرراً لهم من نير الاحتلال الفارسي.

وتابع الإسكندر زحفه باتجاه وادي النيل، وهناك بدت له ضرورة إقامة قاصمة جديدة لملكه وهي الإسكندرية حالياً عند مصبات نهر النيل الكثيرة، وربما اليونانيون الذين يسكنون مدينة نقراطيس المصرية منذ منتصف القرن الثامن ق.م – وهي مدينة تجارية وصناعية في آن واحد – هم الذين أشاروا عليه بإنشائها نظراً لموقعها الهام

ولتكون مركزاً تجارياً هاماً وشريان الوصول مع بلاد اليونان، وتشكل بديلاً عن نقراطيس المصرية. إضافة إلى ذلك كانت رغبته في تأسيس مدينة الإسكندرية محبته لإنشاء المدن، وتخليد اسمه، وحبه في نشر الثقافة الهيللينية، وحاجته الماسة إلى مركز حربي وبحري، وأخيراً نقل العمليات التجارية من صور وغزة بعد تدميرها، وخطط الإسكندر محيط أسوار الإسكندرية، وحدد شوارعها الرئيسة، وأماكن العبادة للآلهة المصرية واليونانية، ثم ترك بقية تفاصيل بناء المدينة لمهندسه الكبير دنقراطيس.

وبعد بناء الإسكندرية أخذ الإسكندر جزءاً من جيشه ونفراً من صحبه، واتجه في محاذاة الشاطئ حتى وصل إلى بارايتونيون (مرسى مطروح حالياً)، ثم توغل في الصحراء قاصداً الحج إلى معبد آمون في واحة سيوة، وكان يضارع في أهميته أعظم معابد الوحي اليونانية وذاع صيته في كل أنحاء العالم اليوناني منذ القدم. ويميل أغلب الباحثين إلى أن الإسكندر قام بهذه الزيارة لتحقيق غايتين اثنتين أمام الرأي العام العالمي وهما: إثبات صحة نسبه بالآلهة المصرية، وبالتالي أحقيته في حكم مصر والفوز بمباركة الإله آمون لمشروعاته المقبلة.

وقد كان من شأن تحقيق هاتين الغايتين، أن ييسر على الملك الإله تكون إمبراطورية عالمية وبسط نفوذه في أرجائها.

وعلى أي حال مضى الإسكندر إلى سيوة واستقبله كاهن المعبد – على أنه ابن آمون – وقدّم الطاعة إلى الإله آمون – وهو أبوه نفسه إذا جاز لنا أن نصدّق والدته أولمبياس – ونحن لا نعرف ما حدث بين الإسكندر ووحي الإله آمون، فهو لم

يفصح عما حدث داخل قدس الأقداس، ولكن لابد أن الإسكندر قد سأل عن مصير حملته وجهوده، ولابد أن الرد كان منبئاً بتحقيق آمال الإسكندر وسيادته على العالم.

وقبل أن يبرح الإسكندر مصر، قام بتنظيم البلاد تنظيماً دقيقاً، فمنحها استقلالاً داخلياً، ووضع وادي النيل تحت أمرة حاكمين أحدهما على الأقل مصري، في حين وضع الأقاليم المتاخمة للدلتا تحت أمرة حاكمين أحدهما على الأقل مصري، في حين وضع الأقاليم المتاخمة للدلتا تحت إشراف رجلين من اليونان، وأمر الجميع أن يرعوا في حكمهم التقاليد المصرية القديمة، وتحصيل الضرائب وتسليمها إلى كليومنيس النقراطيسي، وكان أحد الحاكمين اللذين عينهما الإسكندر، وأوكل إليه أيضاً الأشراف على إنشاء الإسكندرية.